

السيرة والتراجم :

الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي

حياته وآثاره

د/ عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي
استاذ مساعد بكلية أصول الدين بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

الفصل الأول

في حياة المؤلف وسيرته وآثاره العلمية وفيه مباحث

المبحث الأول

في حياته وسيرته ومكانته العلمية

اسمه ونسبه وكنيته :

هو أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد بن أبي الحسين بن القيسراني ' المقدسي ' الأثرى ' الظاهري ' الشيباني .
ويعرف بابن القيسراني ' وبابن طاهر ' وبالمقدسي أيضا .
وقال الصفدي : يعرف في وقته بابن القيسراني الشيباني (١) .

ولادته :

ولد ببית المقدس في شهر شوال سنة ثمان وأربعين وأربع مائة .

قال ابن طاهر عن نفسه : مولدى سنة ثمان وأربعين ' وأربع مائة فى شوال (١) .

طلبه للحديث وعنايته البالغة به :

قد تحدث ابن طاهر عن حياته العلمية كما هو موجود فى كتب التراجم ' وهذه النقول تلقى ضوءا كاملا على حياته العلمية ' والثقافية ' وعلى مدى حرصه ' واهتمامه بالرواية ' والرحلة ' والتأليف ' وتقديم الغالى ' والرخيص ' ومواجهة مشاكل الحياة فى سبيل تحصيل العلم ' والأخذ عن الشيوخ ' والنصوص الآتية تلقى الضوء على هذا بشكل واضح .

تبكيه فى التحصيل العلمى :

بكر المقدسى فى طلب العلم ' وفى الارتحال فى سبيل ذلك إلى المدن الإسلامية ' والتردد على شيوخ البلدان شرقا وغربا ' وقد صرح أن أول سماعه فى سنة ستين وأربع مائة ' ومعناه أنه كان عمره وقت أول سماعه للحديث من شيخ بلده الفقيه نصر المقدسى اثنا عشر عاما ' وحينما رحل إلى بغداد كان عمره تسعة عشر عاما ' وذهب إلى مجلس أبي إسحاق الشيرازى وهو مخطئ أى بدأت تظهر على وجهه اللحية . قال المقدسى : أول سماعى فى ستين ' ودخلت الى بغداد فى سنة سبع وستين ' ثم رجعت ' وأحرمت من بيت المقدس بحجة (٢) .

وكان لتبكيه فى تحصيل العلم ' والأخذ عن شيوخ بلده ثم التبكيه فى الارتحال إلى البلدان الأخرى أثر واضح فى نبوغه فى العلم ' وفى علو أسانيده ' وكثرة شيوخه ' كما سيأتى تفصيله فى مواضعه .

(١) تذكرة الحفاظ (١٢٤٤/٤)

(٢) التذكرة (١٢٤٤/٤)

سيرة المقدسى العلمية فى ضوء أقواله :

وقد تحدث غير مرة المقدسى عن حياته العلمية وعن أسفاره ' وسجل معلومات مفيدة ' وقيمة فى سبيل ذلك ' وإليكم بعض هذه الأقوال :

قال أبو مسعود عبد الرحيم الحاجى : سمعت ابن طاهر يقول :

بليت الدم فى طلب الحديث مرتين مرة ببغداد ' وأخرى بمكة ' كنت أمشى حافيا فى الحر ' فلحقنى ذلك وما ركبت دابة قط فى طلب الحديث ' وكنت أحمل كتي على ظهري ' وما سألت فى حال الطلب أحدا ' كنت أعيش على ما يأتى .

وقيل : كان يمشى دائما فى اليوم والليلة عشرين فرسخا ' وكان قادرا على ذلك (١) .

قال ابن طاهر : وكنت ببغداد فى سنة سبع وستين وأربع مائة ' وتوفى القائم بأمر الله ' وبويع للمقتدى بأمر الله ' فلما كان عشية اليوم ' دخلنا على أبي إسحاق الشيرازى ' وسألناه عن البيعة ' كيف كانت ؟ فحكى لنا ما جرى ' ونظر إلى ' وأنا يومئذ مختط ' فقال : هو أشبه الناس بهذا ' وكان مولد المقتدى فى عام مولدى ' وأنا أصغر منه بأربعة أشهر ' وأول ما سمعت من الفقيه نصر فى سنة ستين وأربع مائة ' ورحلت إلى بغداد سنة سبع ' ثم رجعت ' وأحرمت من بيت المقدس إلى مكة .

قال ابن طاهر : رحلت من طوس إلى أصبهان لأجل حديث أبي زرعة الرازى الذى أخرجه مسلم عنه ' ذاكرني به بعض الرحالة بالليل ' فلما أصبحت ' سرت إلى أصبهان ' ولم أحلل عنى حتى دخلت على الشيخ أبي عمرو (٢) ' فقرأته

(١) السير (٣٦٣/١٩) ' والتذكرة (١٢٤٣/٤)

(٢) هو عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن منده (ت ٤٧٥ هـ)

عليه عن أبيه ' عن القطان ' عن أبي زرعة ' ودفع إلى ثلاثة أرغفة وكمثراتين ' فما كان لي قوت تلك الليلة غيره ' ثم لزمته إلى أن حصلت ما أريد ' ثم خرجت إلى بغداد فلما عدت كان قد توفي (١).

والحديث أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الرقاق : باب أكثر أهل الجنة

الفقراء ...

فقال : حدثنا عبيد الله بن عبد الكريم أبو زرعة ' حدثنا ابن بكير ' حدثني يعقوب بن عبد الرحمن ' عن موسى بن عقبة ' عن عبد الله بن دينار ' عن عبد الله بن عمر ' قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ' وتحول عافيتك ' وفجاءة نقمتك ' وجميع سخطك " .

وقال ابن طاهر : كنت يوما أقرأ على أبي إسحاق جزءا ' فجاءني رجل من أهل بلدي ' وأسر إلى كلاما قال فيه : إن أخالك قد وصل من الشام ' وذلك بعد دخول الترك بيت المقدس ' وقتل الناس بها ' فأخذت في القراءة ' فاختلطت على السطور ' ولم يمكنني أقرأ ' فقال أبو إسحاق : مالك ؟ قلت : خير ' قال : لا بد أن تخبرني ' فأخبرته ' فقال : وكم لك لم تر أخاك ؟ قلت : سنين ' قال : ولم لا تذهب إليه ؟ قلت : حتى أتم الجزء ' قال : ما أعظم حرصكم يا أهل الحديث ' قد تم المجلس ' وصلى الله على محمد ' وانصرف (٢).

قال ابن طاهر : وأقمت بتئيس مدة على أبي محمد بن الحداد ' ونظرائه ' فضاقت بي ' فلم يبق معي غير درهم ' وكنت أحتاج إلى حبر ' وكاغذ ' فترددت في صرفه في

(١) السير (٣٦٦/١٩) والمفنى الكبير (٧٣٩/٥)

(٢) السير (٣٦٧/١٩)

الحبر ' أو الكاغذ ' أو الخبز ' ومضى على هذا ثلاثة أيام لم أطعم فيها ' فلما كان بكرة اليوم الرابع ' قلت في نفسي : لو كان لي اليوم كاغذ ' لم يمكنني أن أكتب من الجوع ' فجعلت الدرهم في فمي ' وخرجت لأشري خبزا ' فبلعته ' ووقع على الضحك ' فلقيني صديق ' وأنا أضحك ' فقال : ما أضحكك ؟ قلت : خير ' فألح على ' وأبيت أن أخبره ' فحلف بالطلاق لتصدقني ' فأخبرته ' فأدخلني منزله ' وتكلف أطعمة .

فلما خرجنا لصلاة الظهر ' اجتمع به بعض وكلاء عامل تنيس ابن قادوس ' فسأله عني ' فقال : هو هذا ' قال : إن صاحبي منذ شهر أمر بي أن أوصل إليه كل يوم عشرة دراهم ' قيمتها ربع دينار ' وسهوت عنه ' فأخذ منه ثلاث مائة ' وجاء بها (١) .
وقد حصلت له قصة أخرى ببغداد في رحلته الثانية من الشام إليها حيث انه كان جائعا منذ ستة أيام حتى جاء الشيخ أبو على المقدسي ' ووضع دينارا في مكان ' وانصرف ' فأخذه ووضع في وسط مجلدة ' ونسى ' وراح إلى السوق ليشتري طعاما ففتش جيبه ولم يجد ' فضاق صدره حتى نام فرأى في المنام أنه في وسط المجلدة فوجدته واشترى طعامه (٢) .

رحلته العلمية :

ارتحل في سبيل العلم والرواية إلى الآفاق فسمع من محدثي البلاد الإسلامية ' فرحل إلى مصر ' ومكة ' والمدينة ' والقدس ' والشام ' والجزيرة ' والعراق ' وأصفهان ' والجبيل ' وفارس ' وخراسان ' وبغداد ' وجرجان ' ونيسابور ' وهرات ' والإسكندرية ' وتنيس ' والبصرة ' والكوفة ' والموصل ' والدينور ' والرى ' وسرخس ' .

وشيراز ' ومرو الروذ ' وسأوة ' والرجبة ' والأنبار ' والأهواز ' ونوقان ' وهمذان ' وواسط ' وأسدا باذ ' والإسفرائن ' وآمل ' وبسطام ' وخسر وجرذ ' وطوس .

وهذه المدن ذكرها الذهبي ' وذكر شيوخه من هذه المدن .

وقال أبو الفضل بن ناصر : صنف كتباً في علوم الحديث ' وكانت له معرفة

بذلك ' وكان مقيماً بهمدان (١) .

وقال ابن السمعاني : وما أظن أحداً رحل في عصره مثل رحلته ' وكتب

بخطه كثيراً من الكتب ' والمصنفات الكبار ' والمسانيد ' والأجزاء المنشورة (٢) .

وقال ابن نقطة : أبو الفضل المقدسي الحافظ طاف البلاد ' وسمع الكثير

وصنف كتباً حسنة في معرفة علوم الحديث ' وكان ثقة في الحديث فاضلاً ثم ذكر

بعض شيوخه على البلدان ' وقال : في خلق كثير ' وجم غفير غير هؤلاء في هذه

البلاد ' وغيرها (٣) .

وقال المقرئ : صاحب التصانيف المشهورة ' أحد الرحالين في طلب

الحديث ' حافظ له ' سمع عصر ' والنفور الشامية ' وبلاد الشام ' والحجاز ' والجزيرة

والعراق ' والجبال ' وفارس ' وخراسان (٤) .

وقد كانت تتكرر هذه الرحلات العلمية ' وكان أحياناً يذكر عن نفسه أنه

كان في الرحلة الفلانية في المكان الفلاني ' فقد نقل عنه ابن نقطة في ترجمة محمد بن

موسى بن عبد الله الصفار أبو الخير بن أبي عمران المروزي الراوي عن أبي الهيثم

(١) التقييد (٥٧/١)

(٢) المقفى الكبير (٧٣٤/٥١)

(٣) التقييد (٥٦/١)

(٤) المقفى الكبير (٧٣٤/٥)

محمد بن المكي الكشميهني بكتاب صحيح البخارى قال : قال محمد بن طاهر المقدسى : واشتهر من روايته بآخره - يعنى من رواية الكشميهني - فرواه عنه جماعة آخرهم وفاة أبو الخير محمد بن عمران الصفار بمرو ' فظهر سماعه على الأصل ' فقرأ عليه مرة تمامه ' ومرة استحضره صاحب الأجل نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق ' فسقط عن دابته ' وحمل إلى بيته ' ومات في ذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ' وكنت إذ ذاك ببغداد في رحلتى الثانية إليها (١) .

وقد قال الصفدى : له الرحلة الواحدة (٢) .

وقد لاحظنا أنه يذكر عند سوق الروايات عن شيوخه المدن التى أخذها عنهم بها .

مكانته العلمية وثناء الناس عليه :

- ١ - قال أبو القاسم ابن عساكر : سمعت إسماعيل بن محمد (٣) الحافظ يقول : أحفظ من رأيت محمد بن طاهر (٤) .
- ٢ - وقال أبو زكريا يحيى بن منده : كان ابن طاهر أحد الحفاظ ' حسن الاعتقاد ' جميل الطريقة ' صدوقا ' عالما بالصحيح والسقيم ' كثير التصانيف ' لازما للأثر (٥) .
- ٣ - وقال شيرويه بن شهردار فى تاريخ همذان : ابن طاهر سكن همذان '

(١) التقييد (١٠٩/١)

(٢) الوافى بالوفيات (١٦٦/٣)

(٣) هو صاحب الترغيب والترهيب والحجة فى بيان المحجة ' ودلائل النبوة ' إمام مشهور '

(٤) السير (٣٦٣/١٩) ' والتذكرة (١٢٤٣/٤) ' والعبر (٣٩٠/٢) ' والمقفى الكبير (٧٣٩/٥)

(٥) السير (٣٦٣/١٩) ' والتذكرة (١٢٤٣/٤) ' والمقفى الكبير (٧٣٩/٥)

وبنى بها دارا ' دخل الشام ' والحجاز ' ومصر ' والعراق ' وخراسان ' وكتب عن عامة مشايخ الوقت ' وروى عنهم ' وكان ثقة ' صدوقا ' حافظا ' عالما بالصحيح ' والسقيم ' حسن المعرفة بالرجال ' والمتون ' كثير التصانيف ' جيد الخط ' لازما للأثر ' بعيدا من الفضول والتعصب ' خفيف الروح ' قوى السير فى السفر ' كثير الحج والعمرة ' مات ببغداد منصرفا من الحج (١).

٤ - وقال أبو سعد السمعاني : سألت الفقيه أبا الحسن الكرجي ' عن ابن طاهر ؟ فقال : ما كان على وجه الأرض له نظير ' وكان داودي المذهب ' قال لى : اخترت مذهب داود ' قلت : ولما ؟ قال : كذا اتفق ' فسألته : من أفضل من رأيت ؟ فقال : سعد بن على الزنجاني ' وعبد الله بن محمد الأنصارى (٢).

٥ - وقال أبو سعد السمعاني : سمعت من أثق به يقول : قال عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى : ينبغي لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة ' سريع النسخ ' سريع المشى ' وقد جمع الله هذه الخصال فى هذا الشاب ' وأشار إلى محمد بن طاهر المقدسى ' وكان قاعدا بين يديه (٣).

٦ - قال ابن النجار : قرأت فى كتاب عبد الله بن أبى بكر بن الخاضبة أنه توفى فى ضحى يوم الخميس العشرين من الشهر ' وله حجرات كثيرة على قدميه ' وكان له معرفة بعلم التصوف ' وأنواعه ' متفنا فيه ' ظريفا ' مطبوعا ' له تصانيف حسنة مفيدة فى علم الحديث ' رحمه الله (٤).

(١) السير (٣٦٥/١٩) ' والذكرة (١٢٤٥/٤) ' والمقنئ الكبير (٧٣٨/٥)

(٢) السير (٣٦٣/١٩)

(٣) المقنئ الكبير (٧٣٨/٥)

(٤) السير (٣٧١/١٩)

٧ - وقال ابن النجار : كان حافظاً متقناً سريع القلم ' حسن التصنيف ' ذكي النفس ' حاد الخاطر ' جيد القريحة (١).

٨ - وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومحمد بن طاهر له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ' ورجاله ' وهو من حفاظ وقته ' ولكن كثير من المتأخرين : أهل الحديث ' وأهل الزهد ' وأهل الفقه ' وغيرهم إذا صنفوا في باب ' ذكروا ما روى فيه من غث ' وسمين ' ولم يميزوا ذلك ' كما يوجد ممن يصنف في الأبواب (٢).

٩ - وقال الحافظ ابن كثير : صنف كتباً مفيدة (٣).

١٠ - وذكره الذهبي في كتابه : ذكر من يعتمد قوله في الجرح والتعديل (رقم ١٣٣) ' وفي المعين في طبقات المحدثين ' وفي وفيات الأعيان .

ووصفه في السير بالإمام الحافظ الجوال الرجال ' ذو التصانيف الأثرى الظاهري الصوفي .

كما قال في الدفاع عنه : والله هو مسلم أثري معظم لحرمة الدين ' وإن أخطأ وشذ .

ووصفه في الذهبي في التذكرة بالحافظ العالم المكثّر الجواد .

وقال في العبر : الحافظ ' ذو الرحلة الواسعة والتصانيف ' والتعليق .

وقال : وكان من أسرع الناس كتابة وأذكاهم ' وأعرفهم بالحديث ' والله

يرحمه ويسامحه (٤).

(١) المقفى الكبير (٧٣٩/٥)

(٢) مجموع الفتاوى (٥٧٩/١١) ' وتراث المسلمين العلمي في نظر شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٨١)

(٣) البداية والنهاية (١٧٦/١٢)

(٤) العبر (٣٩٠/٢)

١٨ - وذكره السخاوي في " المتكلمون في الرجال " في الطبقة الخامسة عشرة (١).

هذه أقوال أهل العلم في الثناء عليه ' وعلى علمه ' وفضله ' وقد كان يدرك المقدسي في نفسه هذا فقال مرة تحدثا بنعمة الله عز وجل ما ذكره السمعاني قال : سمعت أبا جعفر الساوي يقول : كنت بالمدينة مع ابن طاهر فقال : لا أعرف أحدا أعلم بنسب هذا السيد ^{عليه السلام} مني ' وآثاره ' وأحواله (٢).

ويصدقه قول الإمام أبي القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ الأصبهاني : أن المقدسي هو أحفظ من رآه ' وقد روى عن أبي القاسم أنه قال عن نفسه : ما رأيت في عمري من يحفظ حفظي ' وهو شيخ الحفاظ ' وإمام في التفسير ' والحديث ' واللغة .

عقيدته وشهرته بأنه ملازم للأثر :

شهد غير واحد أن ابن طاهر كان حسن الاعتقاد ' جميل الطريقة ' ولازما للأثر كما قال يحيى بن عبد الوهاب ابن منده (٣).

وقال شيرويه بن شهردار : كان لازما للأثر بعيدا من الفضول والتعصب (٤).

وقد صرح بذلك الحافظ الذهبي حيث وصفه بالأثرى ' وقال ردا على الدقاق ' الذي حط على ابن طاهر ' وقال : إنه كان صوفيا ملامتيا ' وقال : وذكر لي عنه الإباحة .

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ (ص ٣٤٩).

(٢) المقفى الكبير (٧٣٨/٥)

(٣) السير (٣٦٣/١٩)

(٤) السير (٣٦٥/١٩)

قال الذهبي : ما تعنى بالإباحة ' إن أردت بها الإباحة المطلقة فحاشا ابن طاهر ' هو - والله - مسلم أثري ' معظم لحرمان الدين ' وإن أخطأ ' أو شذ ' وإن عنيت إباحة خاصة كإباحة السماع ' وإباحة النظر إلى المرد ' فهذه معصية ' وقول للظاهرية لإباحتها مرجوح (١).

نعم ' يعتبر انخراطه في سلك التصوف انحرافا عن السنة ' ولا يقر عليه ' ومن هنا قال الذهبي في ميزان الاعتدال : له انحراف عن السنة إلى تصوف غير مرضي ' وهو في نفسه صدوق لم يتهم ' وله حفظ ورحلة واسعة (٢).

وقد وجدت في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الاستقامة ما يستأنس به في عقيدة هذا الإمام في الأسماء ' والصفات ' إذا الأصل عند المحدثين ' والقدامى خاصة منهم الاستقامة في هذا الباب .

قال شيخ الإسلام : وكلام المشايخ في مسألة العلو كثير مثل ما ذكر محمد بن طاهر المقدسي الحافظ الصوفي المشهور الذي صنف للصوفية " كتاب صفة التصوف " و " مسألة السماع " وغير ذلك ' ذكر عن الشيخ الجليل أبي جعفر الهمداني : أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني ' وهو يقول : كان الله ولا عرش ' وهو على ما عليه كان ' أو كلاما من هذا المعنى ' فقال : يا شيخ ' دعنا من ذكر العرش ' أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ' فإنه ما قال عارف قط : يا الله ' إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو ' ولا يلتفت بمنة ' ولا يسرة ' فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا ؟ قال : فصرخ أبو المعالي ' ولطم على رأسه ' وقال : حيرني

(١) السير (١٩/٣٦٤)

(٢) ميزان الاعتدال (٣/٥٨٧)

الهمداني ' حيرني الهمداني (١).

قلت : وجه للسنة ' وأهلها وممسكه بالآثر واضح من كتاباته ' وخدماته
لعلوم الحديث ' ويبدو من بعض كلامه أنه كان على مذهب أهله وبلده قبل التمييز '
والتحصيل ثم لما قوى في علم الحديث ترك التقليد كما هو واضح من مقدمة مسألة
التسمية ' وكان معظما لشأن المحدثين ' وخاصة البخاري ' ومسلم ' وهو يقول في
مقدمة مسألة التسمية : لعل قائلًا يقول : إني في تصحيح هذا الحديث من هذا
الطريق مقلد للبخاري ' ومسلم لأنهما أخرجاه ' وليس كذلك ' على أنهما بمنزلة
من نقلد ' ولكنني صححته من الوجه الذي صححاه (٢).

وقد ذكر في مقدمة العلو والنزول مقدمة جيدة في فضل أصحاب
الحديث ' فقال :

اعلم أن الحديث وطلبه مندوب إليه ' مثاب صاحبه عليه ' ويرغب فيه
أشراف الناس ' ويزهد فيه الأغبياء الأذناس ' أهله منصورون ' وأعداؤه مهجورون '
ذكرهم الله عز وجل في كتابه ' ودعاهم رسوله ﷺ في خطابه .

ثم ذكر عدة نصوص من الأئمة في هذا الشأن ' ثم قال : ولست أقصد أن
أستقصى ما ذكر عن رسول الله ﷺ ' وعن الصحابة رضی اللہ عنہم ' وعن أئمة
المسلمين قرنا بعد قرن ما في مدح هذه الفرقة على أن لا تقام سنة ' ولا تذلل بدعة '
ولا يؤمر بمعروف ' ولا ينهى عن منكر إلا هو دليل على فضلهم ' لأنهم الذين رووه '
ونقلوه ' ودونوه حتى بلغ إلى من عمل به ' وقد صنف غير واحد من أئمتنا في هذا

(١) الاستقامة لابن تيمية (١٦٧/١)

(٢) مسألة التسمية (ص ٢٦)

للمعنى كتبنا تشمل على مناقبهم (١).

ملحبه فى الفروع :

وكان فى الفروع ظاهرى داوديا كما حكاه عن نفسه ' وقال أبو سعد السمعاني : سألت الفقيه أبا الحسن الكرخى عن ابن طاهر ' فقال : ما كان على وجه الأرض له نظير ' وكان داودى المذهب ' قال لى : اخترت مذهب داود ' قلت : ولم ؟ ' قال : كذا اتفق (٢).

وقال السمعاني : كان داودى المذهب ' وسئل عن مذهبه ' فقال : اخترت مذهب داود (٣).

ووصفه الذهبى بالظاهرى ' ورأيه فى إباحة السماع وإباحة النظر إلى المرد لأجل ظاهرته ' وقوله مرجوح .

لحنه فى العربية وأخطاؤه العلمية :

قال أبو سعد السمعاني : سألت إسماعيل بن محمد الحافظ عن ابن طاهر ' فتوقف ' ثم أساء الثناء عليه .

وسمعت أبا القاسم بن عساكر جمع ابن طاهر أطراف الصحيحين ' وأبى داود ' وأبى عيسى ' والنسائى ' وابن ماجه ' فأخطأ فى مواضع خطأ فاحشا (٤) .
وقال ابن عساكر : مصنفاته كثيرة ' لكنه كثير الوهم وله شعر حسن ' وكان

(٣) مسألة العلو والنزول (ص ٤٩ - ٥٠)

(٢) السير (٣٦٣/١٩) ' والتذكرة (١٢٤٣/٤)

(٣) المقفى الكبير (٧٣٨/٥)

(٤) السير (٣٦٤/١٩ - ٣٦٥) ' والتذكرة (١٢٤٤/٤)

لا يحسن النحو (١).

وقال ابن ناصر : كان لحنة ' ويصحف ' قرأ مرة : وإن جبينه ليتفصد عرقا بالقاف ' فقلت بالفاء ' فكابرنى . [السير ١٩ / ٣٦٥]

وقال السلفى : كان فاضلا يعرف ' لكنه لحنة ' قال لى المؤمن الساجى : كان يقرأ ' ويلحن عند شيخ الإسلام بهراة ' فكان الشيخ يحرك رأسه ' ويقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . [السير ١٩ / ٣٦٥]

خلاصة هذه الأقوال أنه كان يلحن ' وأنه توجد فى مؤلفاته أخطاء ' وأوهام ' أما كونه كان يلحن فهذا ما تفرد به بل وصف به كثير من أهل العلم ' ولا شك أن استقامة الرجل فى اللغة العربية شئ جيد ومطلوب لكنه ليس بقدر فى العدالة ولا فى أصل العلم أيضا .

وأما ما يتعلق بوجود أخطاء فى مؤلفاته فهذا لا شك فيه ' لكن لم يتفرد هو من العلماء فى أنه يخطئ أو يغلط ' وسبحان من لا يسهو ولا يغلط ' وعند وجود هذه الأخطاء والأوهام فهى محدودة ومحصورة لكن يكفى لهذا الإمام شرفا أنه صنف فى علوم عديدة ' وفى الجملة كانت خدماته مفيدة ' ومثمرة حيث استفاد منها المتأخرون ' وبنوا عليها كتبهم ' ومؤلفاتهم .

ولأجل هذا قال الذهبي عنه : كتب ما لا يوصف كثرة بخطه السريع ' القوي الرفيع ' وصنف ' وجمع ' وبرع فى هذا الشأن ' وعنى به أتم عناية ' وغيره أكثر إتقاناً ' وتحرياً منه (٢).

(١) التذكرة (٤/ ١٢٤٤)

(٢) السير (١٩/ ٣٦١)

مسألة السماع والتصوف والنظر إلى المرد :

ألف ابن طاهر عدة كتب فيما يتعلق بهذه المسائل ثم وصف بأنه كان داوديا ظاهريا ' وأنه كان متصوفا ملامتيا ' ومن المعلوم أن العلماء من قديم الزمان قد حصلت منهم أخطاء ' وهنات في أبواب العقيدة والسلوك ' والعلم إلا أن الذى كان فى الجملة على طريقة أهل الحديث فى العلم والعقيدة والسلوك اعتذر له العلماء ' والتمسوا لهم أعذارا مع التنبيه على أن هذه أخطاء يجب أن لا يقلد فيها هؤلاء العلماء ' وعندنا أمثلة لهذا فالمبتدعة ' وموقف نقاد الحديث منهم ' ومن روايتهم مسألة معروفة لدى طلبة العلم ' وقد كان أهل العراق يشربون النبيذ ' كما كان بعضهم يفضل عليا على عثمان - رضى الله عنهما - فالعلماء بينوا الحق فى هذه المسائل ' وهكذا فى هذه المسألة أن ابن طاهر لوحظ عليه أنه ألف فى مسألة السماع كما ألف فى تراجم المتصوفة ثم ألف جزءا فى النظر إلى المرد ' فوجود هذه المؤلفات ' وشهرة مؤلفها بأنه ظاهرى المذهب ' وصوفى المشرب ' وأنه أثرى ' ولا يتعصب ' وأنه جرى فى نقد من يستحق النقد عنده ثم رده على الأشعرى فإن هذه الأمور قد سببت فى توجيه النقد إلى شخصيته ' وفيما يلى نذكر ما قيل فيه طعنا ودفاعا عنه :

١ - قال ابن ناصر : محمد بن طاهر لا يحتج به ' صنف فى جواز النظر إلى المرد '

وكان يذهب مذهب الإباحة (١).

٢ - وقال ابن الجوزى فى المنتظم : صنف كتابا سماه : " صفوة التصوف "

يضحك منه من يراه ' ويعجب من استشهاده على مذاهب الصوفية بالأحاديث التى لا تناسب ما يحتج له من نصرة الصوفية ' وكان داودى المذهب ' فمن أتى عليه

فلحفظه الحديث ومعرفته به ' وإلا فالجرح أولى به ' ذكره أبو سعد ابن السمعاني وانتصر له بغير حجة ...

وقال : ذكره الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد الدقاق ' فأساء الثناء عليه جدا ' ونسبه إلى أشياء ' وكذلك أساء الثناء عليه الحافظ إسماعيل بن أحمد الطلحي ' وكان سئى الرأى فيه .

وعنه نقل سبطه شمس أبو المظفر يوسف بن قزاوغلى (ت ٦٥٤ هـ) فى مرآة الزمان ' والصفدى فى الوافى بالوفيات (١) .

٣ - وقال الذهبي فى السير ' والتذكرة : ذكره الدقاق فى رسالته فحط عليه فقال : كان صوفيا ملامتيا سكن الرى ثم همذان ' وله كتاب " صفوة التصوف " وله أدنى معرفة بالحديث فى باب شيوخ البخارى ومسلم وغيرهما . قال الذهبي متعبا عليه فى السير : قلت : يا ذا الرجل ' أقصر فابن طاهر أحفظ منك بكثير

وقال فى التذكرة أيضا : هو أحفظ منك بكثير يا هذا ! . ثم قال فى السير والتذكرة : وذكر لى عنه الإباحة . قال الذهبي فى السير : قلت : ما تعنى بالإباحة ؟ إن أردت بها الإباحة المطلقة ' فحاشا ابن طاهر ' هو - والله - مسلم أترى ' معظم لحرمت الدين ' وإن أخطأ ' أو شذ ' وإن عنت إباحة خاصة كإباحة السماع ' وإباحة النظر إلى المرد ' فهذه معصية ' وقول للظاهرية بإباحتها مرجوح .

(١) المنتظم (١٣٦/١٧ - ١٣٧) ' ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزى بتحقيق مسفر بن سالم

القامدى ' ط / جامعة أم القرى عام ١٤٧٠ هـ (٥٨٤ / ٢) ' والوافى بالوفيات (١٦٧ / ٣)

وقال فى التذكرة : بل الرجل مسلم معظم للآثار ' وإنما كان يرى إباحة السماع ' لا الإباحة المطلقة التى هى ضرب من الزندقة ' والانحلال (١) .

وقال الذهبى أيضا فى الميزان : محمد بن طاهر المقدسى الحافظ ' ليس بالقوى ' فإنه له أوهام كثيرة فى تواليفه ثم نقل كلام ابن عساكر الذى تقدم ذكره فى أطراف الكتب الستة .

وقال : قلت : وله انحراف عن السنة إلى تصوف غير مرضى ' وهو فى نفسه صدوق لم يتهم ' وله حفظ ' ورحلة واسعة (٢) .

٤ - وقد درس هذه الأحاديث الواردة فى ذم الغناء والمعازف المحقق عبد الله بن يوسف الجديع فى رسالة مستقلة ' وقال فيها : الإمامان ابن حزم ' وابن طاهر حاملًا راية الطعن فى الأحاديث المروية " ذم الغناء ' والمعازف " فكل منهما له مصنف فى ذلك ' وتناوله ابن حزم فى " المحلى " أيضا ' فذهب إلى القول بإطلاق عدم ثبوت شئ فى الباب .

إلى أن قال : وأما ابن طاهر فجملة ما أورده ثلاثة وعشرون حديثًا أو أكثر قليلا ' وعللها جميعا .

ثم قال : فجوزيا على ذلك بالتشنيع والسباب والنيز بالألقاب ' والطعن اللاذع فى العدالة والدين ' بألفاظ مشينة تنزه عن ذكرها ألفاظ الأتقياء ' وتنبو عن سماعها آذان أهل الورع .

وقال أيضا : ولقد اتضح لى من خلال هذه الدراسة رجحان ما ذهب إليه ابن

(٢) التذكرة (٤/١٢٤٤) ' والسير (١٩/٣٦٤)

(٢) ميزان الاعتدال (٣/٥٨٧)

حزم ' وابن طاهر فى شأن أغلب أحاديث الباب ' سوى ثلاث أحاديث ... (١).
وقد روى بأشد مما ذكر مما تاباً النفس أن تنقل ' فمن أراد المزيد فعليه أن
يرجع إلى ما كتبه العلامة الشيخ عبد الرحمن المعلمى فى التنكيل فى مواضع ' وما
علينا أن نقول : ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ' ولا تجعل فى قلوبنا
غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم .

حفظه وذكره :

شهد لحفظه وذكره غير واحد كما تقدم بل وصف بأحفظ أهل عصره ' قال
الحافظ أبو القاسم ابن عساكر عن أبى القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الحافظ
أنه قال : أحفظ من رأيت محمد بن طاهر المقدسى (٢).

وقال ابن النجار : كان حافظاً متقناً سريع القلم ' حسن التصنيف ' ذكى
النفس ' حاد الخاطر ' جيد القريحة (٣).

قوى السير فى السفر وكثير الحج والعمرة :

كان قوى السير فى السفر ' وكثير الحج ' والعمرة ' وقد أشاد بهذا المترجمون
له ' قال السمعاني : سمعت بعض المشايخ يقول : كان محمد بن طاهر يمشى فى ليلة
واحدة قريبا من سبعة عشر فرسخا ' وكان يمشى على الدوام بالليل والنهار عشرين
فرسخا (٤)

وسمعت بعضهم يقول : كان ابن طاهر يمشى فى ليلة واحدة قريبا من سبعة

(١) أحاديث ذم الغناء والمعازف (٩-١٣)

(٢) المقفى الكبير (٧٣٨/٥)

(٣) المقفى الكبير (٧٣٨/٥)

(٤) السير (٣٦٦/١٩) ' والمقفى الكبير (٧٣٨/٥)

عشر فرسخا .

وقال شيرويه بن شهردار : كان قوى السير فى السفر ' كثير الحج والعمرة ' مات ببغداد منصرفا من الحج (١)

وقال عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى : ينبغى لصاحب الحديث أن يكون سريع النسخ ' سريع المشى ' وقد رزق الله تعالى هذه الخصال هذا الشاب ' وأشار إلى المقدسى ' وكان قاعدا بينه (٢).

وكان دائم الحج والعمرة بل جاور الحرم كما قال الصفدى (١٦٦/٣) . وكان مقيما بهمدان ' ويرحل إلى الحج فى كل عام ' وذكر أنه سافر إلى الحجاز ثلاثين سنة (٣).

نسخه لكتب الحديث لنفسه وبالأجرة :

اشتهر المقدسى بسرعة الكتابة والنسخ والقراءة كما اشتهر بجودة الخط وبكثرة كتابة الأحاديث النبوية كما كان صرح بأنه تعود على كتابة ما كان يسمع من شيوخه

وقال عبد الله بن محمد الأنصارى الهروى : ينبغى لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة ' سريع النسخ ' سريع المشى ' وقد رزق الله تعالى هذا الخصال هذا الصعب ' وأشار إلى محمد بن طاهر المقدسى ' وكان قاعدا بين يديه .

(١) المقفى الكبير (٧٣٩/٥)

(٢) المقفى الكبير (٧٣٩/٥)

(٣) التقييد (٥٧/١)

قال السلفى : سمعت ابن طاهر يقول : كتبت الصحيحين ' وسنن أبى داود سبع مرات بالوراقة ' وسنن ابن ماجه عشر مرات بالوراقة سوى التفاريق بالرى (١) ' وذكره الذهبي ' وقال : " بالأجرة " بدل " بالوراقة " (٢).

كسبه ومعيشته :

لم نعلم أن المقدسى اشتغل بوظيفة حكومية أو بتجارة ' أو أنه كان من الأثرياء بل النصوص الموجودة فى ترجمته تدل أنه عاش حياة عادية ' وكان يمشى حافيا فى الليل والنهار ' وأنه كان قد ذكر عن نفسه فى أثناء هذه الرحلات ' فقال : بلبت الدم فى طلب الحديث مرتين ' مرة ببغداد ' ومرة بمكة ' وذلك أنى كنت أمشى حافيا فى حر الهواجر بهما ' وما سألت فى حال الطلب أحدا ' وكنت أعيش على ما يأتى من غير مسألة ' والله ينفعنا به ' ويجعله خالصا لوجهه (٣).

وقد حكى عن نفسه أنه قد جاع مرات وكرات ' وما كان يملك شيئا إذن هو كان يقبل من إخوانه ما كان يأتى من غير مسألة ' ولا استشراف نفس ثم كان يكتب نسخ الكتب الحديثة لسد احتياجاته كما مر ذكر هذه الوقائع كما كان يحمل أمتعة غمزه فى السفر على الأجرة كما عمل هذا فى رحلته إلى الاسكندرية فى رمضان ' وفى أيام الحرارة (٤).

وخلاصة ما يؤخذ من حياته فى هذا الباب أنه كان يتوكل على الله حق التوكل ' وصرف همهته إلى التحصيل العلمى والافادة سفرا وحضرا ' وكان يقضى

(١) المقفى الكبير (٧٣٩/٥)

(٢) التذكرة (١٢٤٣/٤) ' والعبر (٣٩٠/٢)

(٣) تاريخ دمشق (١/٢٤٣/٢/١٥)

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي

أيامه ببعض هذه الأعمال كالوراقة ' أو حمل أمتعة الناس ' وقد بارك الله في حياته فقضاها في سبيل خدمة العلم والدين .

وفاته :

مات في بغداد في شهر ربيع الأول عام ٥٠٧ هـ ' واختلفوا في يوم وفاته .
قال ابن النجار : أنبأنا ذاكر عن شجاع الذهلي قال : مات ابن طاهر عند قدومه من الحج في يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمس مائة (١) .

وقال : و قرأت في كتاب عبد الله بن بكر بن الخاضبة أنه توفي في ضحى يوم الخميس ' العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع وخمس مائة (٢) .
وقال أبو الفضل بن شافع : توفي ببغداد وقد عاد من الحج في ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمس مائة وصلى عليه من الغد يوم الجمعة ' ودفن في مقبرة العقبة بالجانب الغربي عند رباط البسطامي (٣) .
وقال أبو المعمر : في نصف ربيع الأول سنة سبع وخمس مائة (٤) .
وقيل : مات سنة ثمان وخمس مائة ' وقول ابن الخاضبة أصح (٥) .

(يتبع)

(١) السير (٣٧١/١٩) ' والمقفى الكبير (٧٤٢/٥)

(٢) السير (٣٧١/١٩) ' والمقفى الكبير (٧٤٢/٥)

(٣) التقييد (٥٧/١)

(٤) التذكرة (١٢٤٥/٤)

(٥) المقفى الكبير (٧٤٢/٥)